الحلقة الرابعة والعشرون

(1) (منزل الأسير في صيدا.. الأسير يفتح الباب بهدوء لا يريد أن يوقظ أحدا.. يشاهد محمود يتلصص من خرم الباب حيث تنام فاطمة في غرفة حسن.. يدخل غرفة نومه دون أن يراه.. يخلع عمامته وسترته وقمبازه ويرتدي منامته ويستلقي قرب حنيفة يفكر.. الشمس ترسل أشعتها من وراء الأفق الى سريرالشيخ فيبدو وجهه قلقا مهموما)

الأسير: (لنفسه) لا بد من تزويج محمود!.. تجاوز الثلاثين وأخواه الأصغر سنا مصطفى وحسن كوّنا أسرتيهما منذ سنوات، وتقدما في مهنتيهما، أما هو فلا أسرة تشدّه ولا عمل يقوم به (تتململ حنيفة في فراشها وقد صحتها أشعة الشمس التي داعبت عينيها فترى أبا محمود قربها فتعتذر عن تأخرها في النوم)

حنيفة: لقد سهرت أنا وفاطمة طويلا نعد الطعام ونلف ورق العنب حتى لا ننشغل يوم الجمعة عنك، وما كنت أظن أنك تصل باكرا..

الأسير: أنا أيضا لم أرغب أن يمضي نهاري على الطرقات (تنهض حنيفة لتهيئ الفطور فيشدها الأسير من يدها)

الأسير: ابق قربي فلي حديث معك..

حنيفة : خير ان شاء الله..(ينهض الأسير الى سترته ويخرج منها رسالة محمد ويناولها إياها.. تقرأها فيشرق وجهها بالفرح) أريد أن أزغرد لهذه الأخبار السارة..

الأسير: لاتزغردي فتوقظي النيام! انني أريد أن تحدثي محمود بشأن الزواج..

حنيفة: هل اخترت له أحدا من بيروت؟ من تكون؟

الأسير: لا، من أريدها أن تكون له زوجة هي فاطمة.. شابة وجميلة ومن عائلة كريمة..

حنيفة: (تنهض منزعجة لهذا الإختيار) لا بالله يا أبو محمود! لن أزوّج إبني من مطلقة جاهلة.. هل خلت صيدا من البنات الجميلات ذوات الحسب والنسب؟

الأسير: أنت اسأليه رأيه، فلعله رآها ووقعت من نفسه!

حنيفة: لا أريد أن أعرف رأيه.. انه قادم من حرب كان فيها على وشك الموت وشاهد أمامه رفاقه يتساقطون.. فهو في وضع لا يحسن فيه الإختيار، قد تعجبه أية فتاة يسوقها القدر أمام عينيه..

الأسير: أنا سأسأله بنفسي.. أيقظيه ليفطر معنا..
حنيفة: لن أوافق على اختيارك يا أبو محمود، ولو سقطت السماء على الأرض..
الأسير: أنا الذي سأقيم الدنيا وأقعدها عليه ان لم يوافق على الزواج من فاطمة! شاهدته صبيحة هذا اليوم يتلصّص من خرم باب غرفة حسن عليها! ماذا يريد؟ أن يغويها؟ لا يجوز شرعا أن يكون في بيت واحد شاب وشابة غرباء.. يكونان كالنار والبارود لا يلبث أن ينفجر..
حنيفة: خذ فاطمة وأعدها الى أهلها.. أنا ربيت أولادي جميعهم دون مساعدة أحد..
الأسير: فاطمة ليس لها من أحد تلجأ اليه.. سألت عن أهلها.. والدها توفي وأمها وأخواها الصغيران يعيشون عالة على خالها المعيل.. لهذا سأسأله ان كانت له رغبة في الزواج من فاطمة، فان رفض كان لي شأن آخر معه..
حنيفة: بماذا تهدد يا أبو محمود؟
الأسير: لن يكون له سكن في هذا البيت.. سأصطحبه الى بيروت للسكنى معي هناك.. وسأتزوج أنا فاطمة وأبقيها هنا! فاختاري أحد الحلين..(حنيفة تتنهد)
حنيفة: تخيرني خيارا صعبا يا أبو محمود، وتجعلني هزؤة بين أهلي في صيدا، وأنا لا أنفك أمدح خصالك وعفتك وتقواك!
الأسير: هذا قراري يا حنيفة.. قولي له أن الرجل بأفعاله يشرّف نسبه ونسب من يتزوج.. صحيح أن الرسول قال "اختاروا لنطفكم!" ولكن الإختيار لايكون حسب الوضع الإجتماعي للإنسان.. فالغني بصفاته يبقى غنيا أربعين عاما ولو جارعليه الزمن، والفقير في صفاته يبقى فقيرا بعد أربعين عاما من غناه (طرق خفيف على الباب.. فاطمة من وراء الباب تنادي حنيفة بأن الفطور جاهز)
حنيفة: أنا قادمة!
الأسير: أنا لن أفطر حتى تأتيني بجواب محمود.. لا أريد أن أنفعل وأفقد سيطرتي على نفسي وأقطع حبل الود بيني وبينه الى الأبد، فان كان جوابه قبولا يكون فيه الخير للجميع، وتعيش فاطمة بيننا عزيزة مكرمة وليست كخادمة، أما اذا كان رفضا فليجمع حوائجه وليذهب معي الى بيروت، فليست بنات الناس لعبة بين يديه!

(2) (بيروت.. منزل يوسف الأسير.. محمود نائم في سرير والده.. الشيخ مستلق على الديوان قبالته بكامل ثيابه.. يستيقظ محمود)

الأسير: أنا ذاهب الى مقري في صحيفة لسان الحال.. سأترك لك مبلغا من المال تشتري لنفسك طقما على النسق الأوروبي وطربوشا تركيا وكل ما تحتاجه من قمصان وألبسة داخلية ومنامات.. ستبدأ عهدا جديدا هنا.. غدا نذهب معا الى منزل المرحوم علي باشا.. فابنته تريد أن تستعين بك لملاحقة معاملات إرث أبيها في لبنان.. وتريد بيع بيتها لتلتحق بأبنائها الثلاثة في استنبول.. طلبت مني ذلك ولكن وقتي لا يسعفني، فاقترحت عليها أن توكلك أنت في هذه الأمور.. في المطبخ كل ما تحتاجه للفطور، والحمام أوقدته لك، وغذاؤنا يكون في بيت مصطفى، فهو يدعوني في كل يوم سبت.. كن جاهزا حتى نفاجئه بقدومك في الثانية والنصف..

(3) (بيروت.. قصر علي باشا.. الأسير ومحمود في غرفة الإستقبال.. تطل شهربان من الباب بقامتها الفارعة.. يرتعش قلب محمود ويؤخذ بجمالها.. لم يسبق له أن شاهد مثيلا لهذا الجمال.. أميرة بملامح تركية يونانية ترتدي اليشمق وقد زادها لباس الأسود المزين الصدر والكمين بخيوط الذهب جمالا، وأبرز فتنة بشرتها البيضاء النقية الملساء وشفتيها الممتلئتين القرمزيتين وعينيها السوداوين الكحيلتين.. تدخل وراءها جارية تحمل صندوقا تضعه على طاولة وتخرج)

شهربان: كيف حالك يا أستاذ محمود؟ حمدا لله على عودتك سالما.. أخبرني والدك أنك بحاجة الى نقاهة بضعة أسابيع، وأنا لست في عجلة من أمري.. فراق هذه البلاد المعتدلة الجو يحز في نفسي، خصوصا وقد تركت فيها أعز انسان لي.. والدي الذي كان صديقي ومرشدي، وأحببته حب ابنة وحيدة لوالدها الشغوف.. ان قبره أصبح حجّي..

الأسير: هل انتهى بناء القبر؟

شهربان: نعم، كنت أتمنى لو أتيح لي دفنه في استنبول، ولكن الظروف لم تكن ملائمة.. القصر في هيجان للهزيمة، وقد يخلع مراد الخامس عن عرشه في أية لحظة.. (تذكر زوجها الأمير مراد وتشعر بالحرج أن يلاحظ أحد دمعها الذي كاد يطفر من عينيها فتخرج)

الأسير: (لمحمود) ما بالك جلست كالمأخوذ، تحملق فيها كالأبله، ولا تفوه بكلمة!

محمود: كنت أردد شعر ابن هاني:

يزيدك وجهه حسنا أذا ما زدته نظرا

(تعود شهربان بصينية فيها شراب التوت وتقوم بنفسها بواجب الضيافة)
شهربان: (ترشف قليلا من الشراب المثلج وتقول لأبي محمود) سأبعث اليك بعربة والدي وسائقها لتكون تحت تصرفك ريثما يتعافى محمود، فهو يكون بحاجة اليها في نزهاته وزياراته..
الأسير: لا حاجة بمحمود الى عربة.. المشي أفضل لصحته..
شهربان: (بهدوء) أنا لا يلزمني أن تكون مركبتان في قصري.. ولا أريد بيعها وأنا مقبلة على سفر.. وأنت كنت أفضل صديق لوالدي، وأريد أن أهديك اياها ذكرى من والدي، فأشعر بالراحة أن هناك في لبنان من يزوره في الأعياد ويترحّم عليه ويضع فوق قبره الآس..
الأسير: ماذا أفعل بالسائق؟

شهربان: أسرته تسكن في القصر، وراتبه علي.. وحين أسافر يكون محمود مسؤولا عنه.. انه رجل وفيّ وزوجته كذلك، انها طباخة ماهرة تحسن طبخ الأطعمة اللبنانية التي أصبحنا نستسيغها منذ حللنا لبنان.. وبما أن اليوم أحد ولا تدريس عندك في الجامعة الأمريكية ولا في ثانوية الثلاثة أقمار فانكما ستكونان ضيفيّ على الغذاء.. (صوت طفل يبكي) أنا ذاهبة لإرضاع عليّ، وحين أعود أرافقكما لمشاهدة القصر والحديقة حتى يحين موعد الغذاء (الى محمود) سأترك لك صندوق الأوراق الرسمية والثبوتية التي في حوزتي تضطلع عليها.. (تناوله الصندوق وتخرج)

الأسير: (محذرا) لا تعلق قلبك بالمستحيل يا محمود.. تظنها قريبة منك، ولكن بحورا تفصل ما بينك وبينها.. انها راهبة نذرت شبابها وحياتها لتربية أبنائها الأربعة.. وهي أرملة قتل زوجها الأمير مراد وكانت تحمل له حنان الحب ودفء الود، فجعها موته.. جاءت لبنان مع والدها مؤقتا حتى تنتهي الحرب وكي تنسى مصيبتها، فكان أمر الله أن تفجع بوالدها، وهي تريد العودة الى أبنائها الثلاثة الذين تركتهم في بيت جدهم من أجل دراستهم.. انها لا ترغب بالزواج حتى لوكان من يطلبها أميرا، حتى لا تفقد الحق في حضانتهم..

محمود: أبي انها شابة وقد وقعت من نفسها كما وقعت من نفسي.. لقد شدّت على يدي حين صافحتني!

الأسير: انها كانت تفعل ذلك مع من أعرفهم.. مع فارس الشدياق وغيره ممن لا تعرفهم.. فقط أنا من كانت تنحني لي برشاقة لآنني شافعي لا أمدّ يدي للسلام على أنثى..

محمود: كان على وجهها بسمة المحب!

الأسير: (غاضبا) حذار أن توغل بك الظنون يا محمود!.. انني أعرفها منذ كانت في السابعة عشر من عمرها.. فارسة متحررة، أمها أخت السلطان عبد المجيد، تقابل في منزل والدها قناصل الدول، تبسم في وجوههم، وتشدّ على أيديهم حين تصافحهم.. تصوّر أن والدها أدخلها الكلية العسكرية لتدرس ما يدرسه الرجال من علوم التاريخ واللغات والجغرافيا والإسعافات الأولية، ولكن شيخ الإسلام لم يتركها تكمل دراستها حتى الشوط الأخير.. حرّض عليها السلطان فأراد والدها إرسالها الى مدرسة داخلية في ألمانيا تدرس فيها الطب، ولكن أمها وهي وحيدتها أبت عليها ذلك.. حضرت لها حفلة سباق الخيل آخر العام فكانت الفائزة الأولى في السباق، وكان الثاني الأمير مراد الذي أصبح زوجها فيما بعد..

محمود: ماذا أفادها ركوب الخيل بعد الزواج حين أرادتها الحياة أن تتزوج وتنجب الأبناء؟

الأسير: أريد أن أخبرك بأنها التقت بالرجل الذي كان يناسبها.. كان في صف التخرج من المدرسة العسكرية وأرسله والدها للتخصص بالمدفعية في ألمانيا فانتظرته حتى عاد.. وكان الحب قد نما بينهما منذ حفلة السباق وتعاهدا على الزواج، وبقي حيا طوال حياتها الزوجية وأنجبت منه أولادا مميزين، فهل تهجرهم اليوم من أجل شخص ليس من قومها ولا هومن طبقتها الإجتماعية؟

محمود: ليس للحب حدود يقف عندها ان نما في قلب انسان.. ولا يعيش الإنسان سعيدا في ذكريات الماضي الذي كان ولن يكون.. والأولاد يعيشون وينمون ويدرسون بدونها، ثم ينطلقون الى حياتهم الخاصة.. ولن يكون لها في مستقبلها الاّ قلبا يخفق بحبها.. أنا لست دونها في نسبي وثقافتي فأنا ابن الأسير المنسوب الى الحسين ابن بنت الرسول.. وأحسن ثلاث لغات: الإنجليزية، والتركية، الى جانب العربية وأضيف لدراسة اللغات الطب والحقوق!

الأسير: لا تكن طموحا يا ولدي فتخسر عملك الذي أرسله الله لك.. فلو تماديت ولو بالكلام وأظهرت عواطفك نحوها، فانها تتخلى عن توكيلك في شؤونها، وتجد شخصا آخر يخدمها، دون أن يقحم نفسه في حياتها..

(4) (صيدا.. منزل الأسير.. حنيفة تستقبله بلهفة وقد ارتدت أجمل ثيابها، وتكحلت وتعطرت مستعدة لهذا اليوم العصيب الذي يقرر فيه الشيخ مصيرها.. لعله يتراجع عن قراره.. فاطمة في المطبخ تهيئ الفطور.. يخلع عمامته وتساعده حنيفة في خلع سترته)

حنيفة: كيف حال محمود، طمّني عن صحته!

الأسير: شدّ حيله وانتصبت قامته، وارتدى ثياب المحامين الكبار وصارت له عربة، وبلغ به الغرور أن يعشق شهربان..

حنيفة: انه محمود لن يتغير، من بنت الجيران الى شهربان! اخلع ثيابك واغتسل من وعثاء السفر، فالحمام ساخن..

الأسير: هو كذلك، وأريد أن أصلي ركعتين..

حنيفة: ثيابك جاهزة في الحمام (تذهب الى المطبخ من بابه الداخلي.. الى فاطمة) أتركي الشاي فلا تلقميه حتى ينتهي الشيخ من صلاته.. (تتأمل ساهمة المائدة وعليها المفرش الأبيض، وكل أنواع حواضر البيت.. تهب واقفة وهي تفكر) أعرفه يصلي حين يبرق الفجر!

الأسير: (على سجادة الصلاة) اللهم اني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فأنت تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم.. وأنت علام الغيوب.. رب ألهمني الصواب لأفعله.. اللهم لا سهل الاّ ما جعلته سهلا، ولا صعب الاّ ما جعلته صعبا.. رب جنبني المزالق، فلا أظلم أحدا.. اللهم ان وجدت فيما أضمر خيرا أعني عليه ولا تعجزني عنه.. عدل فيّ قضاؤك وماض فيّ حكمك.. نوّر صدري واشرح صدري لما فيه خيري، ولا تكلني الى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني.. لا اله الاّ أنت، لا اله الاّ أنت!

حنيفة: أطلت صلاتك يا أبو مجمود، وما هي أوانها!

الشيخ: انها صلاة استخارة يا حنيفة، ولقد أذن لي ربي وألهمني الصواب فيما أفعله (ينهض.. تسرع حنيفة لتلقم الشاي.. يتبعها الشيخ.. فاطمة تحاول الخروج من الباب المؤدي للحديقة.. يستوقفها الشيخ) ابق يا فاطمة وافطري معنا!

فاطمة: معاذ الله يا شيخ أن أرفع نفسي الى مقامك!

الأسير: قلت لك اجلسي يا فاطمة وافطري معنا.. بسم الله، اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه! (حنيفة تحضر لفاطمة كوبا وصحنا، فتجلس منكمشة على نفسها.. تقوم حنيفة بسكب الشاي وتحليته.. الجميع يتناولون الفطور متوتري الأعصاب ولا يأكلون الاّ القليل)

الشيخ: (لفاطمة) أنا سألت عن أهلك في اللاذقية، وعلمت أن والدك قد توفي منذ بضعة أشهر، أما والدتك فانها انتقلت للسكن في بيت خالك مع أخويك.. فهل تحبين أن أوصلك أنا وأم محمود الى اللاذقية حيث تنضمين الى أمك في بيت خالك؟

فاطمة: (باكية) لا بالله، انه معيل وسيكون لضائقته أقسى علي من والدي، ولن يغفر لي أنني طلقت زوجي، وربما أعادني اليه!

الأسير: ألك أقارب في اللاذقية غير خالك؟

فاطمة: لي عم تاجر يقاطعنا منذ زمن ولا يعترف بنا، وكان يخجل من أبي لأنه فقير..

الأسير: أنت في حمايتي الآن، ولكنني لا أستطيع أن أستبقيك طويلا في بيتي.. فماذا ستفعلين؟

فاطمة: يكفيني أنك خلصتني من الضيم الذي كنت فيه.. انني أخدمك وأخدم خالتي أم محمود بعيوني، جزاء ما أحسنتم به الي..

الأسير: نحن لا نستخدم أحدا في بيتنا، لقد ربت أم محمود خمسة أولاد دون أن تستعين بأحد: أربعة أبناء وبنتا فارقتنا وهي في مثل سنك منذ عشرة أعوام.. (فاطمة صامتة ودموعها تنهمر على وجنتيها) يعلم الله أنني أحببتك كما كنت أحب ابنتي فريدة التي فقدتها وكانت أثيرة لدي.. انك تشبهينها الى حد كبير.. تمنيت لو تصبحين فردا في عائلتنا فأستأنس بك، وعرضت الأمر على ابني العازب محمود ولكن كان له

رأي آخـر.. يريـد أن يحقـق طموحـه ويبنـي نفسـه ولا يفكـر بـالزواج (فاطمة تشهق بالبكاء)

فاطمة: لاأريد أن أخرج من هذا البيت الاّ الى القبر..

الأسير: أصبح همي الشاغل أن أراك قريرة العين، لا خوف يضنيك، ولا أحد يتجنى عليك، ولكن كيف أفعل هذا ولست ابنتي؟ ولست من ذوي رحمي.. هل أخلص من كلام الناس، ومن الشبهة في نواياي وأنا أحيطك برعاية الإبن لابنته؟ لا يا فاطمة لا يجوز شرعا أن أتبناك.. ولا أستطيع أن أتجنب ألسنة السوء بنواياي وأنا مفتي البلد وقاضيها.. استخرت في أمرك ربي.. فهداني الى ما شرح لي صدري (يلقي نظرة خاطفة الى حنيفة فيرى وجهها شاحبا كالليمونة) أعقد عليك دون أن أقربك.. ان فارق العمر ما بيني وبينك لا يسمح لضميري أن أظلمك.. أما ان شاء الله غير ذلك، فيكون الأمر بيدك ولا سلطان لي عليك، فأزرع في رحمك الولد، ولعل الله يكرمني في شيخوختي فأنجب منك بنتا تشبهك وتشبه ابنتي فريدة التي لا يزال جرح فقدها طريا في قلبي!

* * *